الخدعة الأخيرة

همدان دماج

كان صباحاً ممطراً عندما ساد الهدوء الخنادق الأمامية لساحة المعركة. وبينما كانت سحب الدخان لاتزال تتصاعد بقوة من كل الأماكن، كانت بعض الجثث المترامية لاتزال تنم عن حركات بسيطة ترفض إلى الرمق الأخير أن يلتقفها الموت.

كان جرحه نازفاً، والألم تحول إلى صداع عنيف. تردد في فتح خزانة الإسعافات لوقت طويل؛ كان يتجنب، بل يخاف، مواد التعقيم. كم يمقت هذه الروائح! تصيبه بهلع شديد وخوف أكبر من خوفه من القذائف الليلية المتساقطة. فمنذ ذلك اليوم الذي أخذ بحيلة عائلية إلى المستشفى الحكومي، منذ زمن بعيد، لقلع أسنانه الأمامية، ورائحة التعقيم تبعث في نفسه شعوراً بالرعب والهزيمة.

* * *

كان صباحاً ممطراً أيضاً في ذلك اليوم عندما "حاولت أن أشرح للطبيب الأجنبي ذي الشعر الأحمر أنه يمسك بأكثر من السن المتراخية". حاول أن يشير إليه بأصابعه وبحركات عينيه وفمه المفتوح، أن يوقف هذه الآلة المتوحشة التي تنتزع أسنانه دون رحمة؛ لكنه أدرك أن الوقت قد فات عندما رأى سنيه الأماميتين بين يديه. "لقد خُدعت"، حدث نفسه بأسى وأجهش ببكاء مُر.

* * *

كان القصف عنيفاً هذه المرة. "لقد خُدعنا!"، قال له زميله مطرقاً برأسه إلى الأسفل . جال بنظره على الكثبان الرملية المبتلة والممزوجة بخطوط الدم الحمراء على طول الجبهة. أحذية بلا أقدام هنا وهناك، وجثث هامدة كانت بالأمس تتنفس وتتحرك، تمتثل لأوامره الصارمة بعدم إطلاق النار وتبادله نفس شعور الخوف والرغبة في الحياة. قذف بجسده المرهق على أحد صناديق

الذخيرة، وأغمض عينيه، وتذكر كيف أنه انتظر خمس ليالٍ متتالية القمر الذي غاب، في أيام الأمطار الصيفية، وراء غيوم مثقلة، ليرمي له بسنيه اللتين نزعهما له الطبيب الأجنبي، ويناجيه، كما أخبرته أمه، أن يمنحه "أسنان الغزال" بدلاً منها!!

* * *

كانت الحرب قد أوشكت أن تضع أوزارها، لكن معركته كانت قد انتهت واستسلم الجميع مرهقين للقوات المتقدمة بعد تفاوض سريع. لقد ملَّ الجميع هذه الحرب وأدركوا أن للحياة طعماً آخر. كانت الغرفة مكتظة بأجساد منهكة تئن، استطاع أن يلمح تكومها شيئاً فشيئاً من خلال الضوء الخافت المنبعث من نافذة الباب ذات القضبان الحديدية. كانت الجروح المتعفنة تبعث رائحة ذات حموضة مثيرة للغثيان. وعلى مسافة غير بعيدة وراء الجدران كانت طلقات نارية منتظمة تُسمع بين الحين والآخر، مصحوبةً بارتطام أجساد متعبة على تراب ساحة المعسكر.

أجهد قواه المنهكة ليزيح عنه بعض الأجساد المتكومة، وأخرج من جيب سترته العسكرية علبة الحلاقة، وبدأ ينظر باهتمام إلى انعكاس أسنانه المصفرّة على المرآة الصغيرة المثبتة على ظهر العلبة. "لا بد وأن القمر كان غاضباً ذلك اليوم!"، تمتم ضاحكاً وهو يشاهد أسنانه الأمامية المتكومة وقد أكلها التسوس. قذف بعلبة الحلاقة بعيداً، وتنهد بأسى، ثم ما لبث أن أجهش ببكاء مر. حدق نحو الضوء المنبعث من نافذة الباب ذات القضبان الحديدية، وسمع صوت أقدام كثيرة تقترب... وفُتح الباب بقوة فطأطأ رأسه وتنهد للمرة الأخيرة: "لقد خُدعت مرة أخرى!".

خريف 1996